

العلاقات الأسرية في المصطلح المملوكي

للدكتور

أحمد عبد الرازق

كلية الآداب — جامعة عين شمس

لا جدال في أن طبقة المماليك التي حكمت مصر زهاء قرنين ونصف من الزمان (٦٤٨ - ٨٢٣ - ١٢٥٠ - ١٥١٧) لم تدرك المفهوم الصحيح للأسرة^(١)، بل لم يكن لديها حياة عائلية بالمعنى المعروف رغم أن غالبية أفرادها حرصوا على الزواج^(٢) وعلى انجاب الأطفال، وأيضاً على نظام التسرى وإقتناء الجوارى والمحظيات^(٣)، ذلك أن أسلوب المماليك في الحياة لم يقيم على أساس وحدة الأسرة بأركانها المعروفة وهي: الأب والأم والأولاد، بقدر ما قام على أساس الرقيق والمماليك فالعلاقات بين المماليك الذين جمعتهم أواصر الرق والعتق والتربية والخدمة^(٤)، وكذلك العلاقات بين المملوك الكبير والمملوك الصغير تشبه أحياناً روابط البنوة، وأحياناً روابط الأخوة، ولم يكن في حياة المملوك من الروابط العائلية غير واحدة منها فقط. وخير ما يوضح ذلك معاني ألفاظ المصطلح المملوكي، فالأستاذ^(٥) هو الأب، والأغا^(٦) هو الأخ الكبير، والاني^(٧) هو الأخ الصغير، وورد في المصادر المملوكية ما يشير أيضاً إلى أن لفظ أخ يرادف لفظ خشداش^(٨) ولفظ أخوة يرادف لفظ خشداشية. وحسبنا أن نشير هنا إلى أن الإبن كان كثيراً لا يختلف أباه في مركزه ولا يرثه أيضاً في ثروته^(٩). وإنما المملوك هو الذي كان يحل محل أستاذه ويرثه حتى في الإستيلاء على حريمه^(١٠). وخير ما يوضح ذلك أيضاً أن الواحد منهم كان لا يأكل مع أبنائه وحريمه

ولأنما يفضل أن يأكل مع مماليكه ، وإذا رأى نارا توقدا سأل عنها فيقال أن فلانا إشتهى كذا فيغضب من لا يأكل عنده^(١١). كذلك كثير ما نصت بعض الحجج الخاصة بأوقاف المماليك على أن الأستاذ أحق الناس بالتمتع بربع الوقف الذى يقفه المملوك^(١٢). ومن ثم فقد أصبحت الحياة العائلية لطبقة المماليك لا تقوم على أساس العلاقة بين الرجل وزوجته وأبنائه بقدر ما تقوم على أساس العلاقة بين الأستاذ ومماليكه وبين المماليك وبعضهم البعض .

أما عن كون الأستاذ بمثابة الأب ، فهو يبدو بوضوح من تلك الرسالة التى بعث بها السلطان الظاهر بيبرس من دمشق سنة ١٢٧١/٦٧٠ إلى مماليكه بمصر حيث يقول فيها : . . . والدكم يسلم عليكم ويتشوق اليكم ، وإشارته ألا يفارقكم ، ولأنما قدمنا راحتكم على راحتنا . . .^(١٣) . . . ومن الأمثال العديدة التى لا تمل المصادر المملوكية من إيرادها فى بعض المناسبات العائلية إذ يذكر المؤرخ المملوكى ابن تغرى بردى فى معرض حديثه عن مقتل السلطان لاجين وعملوكه منكرتمر ، أن الأول قد أعطى سلطات واسعة إلى الثانى الذى أساء بدوره استعمالها ، فكان كما قيل فى الأمثال : الولد الخبيث يكتسب لأبيه اللعنة^(١٤) . . . كذلك عندما أقبل المماليك السلطانية عام ١٣٨٩/٧٩١ على اللهر والنساء بدمشق وضائقوا أهل المدينة حتى سئمهم الناس ، وانطلقت الألسنة بالوقعة فيهم وفى - مرسلهم السلطان برقوق^(١٥) ، نجد أن المؤرخ نفسه يشير من جديد إلى المثل السابق قائلا : إن الولد الخبيث يكون سببا لو لده فى اللعنة^(١٦) . . .

وعلى هذا فقد ارتبط المملوك بأستاذه الذى اشتراه والذى أعتقه بروابط وثيقة ، وكثيرا ما كان يظل وفيا وخلصا له حتى آخر يوم فى حياته ، وهذا الأستاذ بالمعنى المملوكى الإصطلاحي^(١٧) ، الذى تطلق عليه المصادر اسم

السيد (١٨) أو المعتق (١٩) أو المولى (٢٠) . ولذا فقد حرص مؤرخو عصر سلاطين المماليك ، على الإشارة في مؤلفاتهم عند ذكر أسماء المماليك ، إلى المعتقين الذين أعتقوهم (٢١) أو النص صراحة على جهلمهم بأسماء أولئك المعتقين ، مثلما يفعل أحد الكتاب في معرض حديثه عن معتق الأمير سيف الدين طوغان أوبردى المنقار نائب الكرك حين يقول : « توفي الأمير سيف الدين طوغان السيفي أوبردى المنقار نائب الكرك قتيلا بيد العربان في هذه السنة (١٤٥٢/٨٥٦) وهو من الأصاغر الذين أنشأهم الملك الظاهر جقمق في أوائل دولته ولم أعرفه قبل ذلك ، ولا أعرف معتقه ، بل قيل أنه من مماليك أوبردى المنقار ، وقيل نووز الحافظي (٢٢) ، كما عاب المؤرخ ابن تغرى بردى على زميله إن حجر جهله بمعرفة أستاذ السلطان الأشرف برسبای بما نصه « وسبب سياقنا لهذه الحكاية أن قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر رحمه الله نسبته أنه عتيق دقاق وليس الأمر على ما نقله ، وهو معذور فيما نقله لبعده عن معرفة اللغة التركبية ومداخلة الأتراك ، وقد اشتهر أيضا بالدقاقى فظن أنه عتيق دقاقى ... وتوجهنا إلى السيفي طوغان الدقاقى وهو من أكابر مماليك دقاق وسألته عن الملك الأشرف سؤال استفهام فقال هو عتيق الظاهر برقوق وندمه أستاذنا إليه ... (٢٣) ، » .

أما الممالك الذين يتم تحريرهم فكان يطلق على الواحد منهم لفظ عتيق والجمع عتقاء أو يعرف باسم معتق والجمع معانيق ، وإن كان اللفظ الأخير قليل الإستعمال فى المصادر التاريخية . ويلاحظ أيضا أن لفظ عتيق نادرا ما يأتى منفردا بل كان يرد فى عبارات خاصة مثل : « عتيق فلان ، أو « كان أصله من عتقاء فلان (٢٤) ، كما نقرأ أيضا فى المصادر المملوكية عبارة وأصله من مماليك فلان ، ، التى لم تسكن تعنى بالضرورة الأستاذ الذى أعتق المملوك وإنما تشير فى بعض الأحيان إلى السيد الذى آل إليه هذا المملوك . إذ يذكر المؤرخ ابن تغرى بردى فى ترجمة الأمير سيف الدين يلخجا بن عبد الله

من مامش الساقى أنه ، كان أصله من ممالك الظاهر برقوق أخذه مع أبيه وأمه ثم أنعم به على ولده الملك المنصور عبيد العزيز ، ثم ملكه الناصر فرج (٢٥) .

وإذا حدث وانتقل المملوك ، بعد عتقه ، إلى خدمة سيد آخر ، كان يطلق على هذا السيد الجديد إسم مخدوم (٢٦) ، ويطلق على المملوك لقب مستخدم (٢٧) . بيد أن الروابط بينهما لم تكن فى متانة العلاقات التى تربط بين المعتق وعتيقه ، وإنما كانت فى الغالب علاقات سطحية وصلات باردة ، سببها من غير شك ، يقين المستخدم بأن المخدوم لا يراعى إلا مآليكه الأصليين ، وأمل خير دليل على ذلك ما كان يكتفه السلطان من كراهية للممالك القرانيص الذين انتقلوا إلى خدمته ، وهم ممن أعتقهم السلاطين السابقون (٢٨) ، إذ غالباً ما اعتبرهم السلطان الجديد أقل مكانة من معانيقه .

وتحدث المصادر التاريخية التى وضعت فى العصر المملوكى عن الصلات الطيبة التى كانت تربط دائماً بين الأستاذ والمملوك الذى أعتقه (٢٩) ومن ذلك ما اشتهر به السلطان الظاهر بيبرس البندقدارى من تقديره لأستاذه أيدكين البندقدارى ، إذ جعله نائباً للشام وصار يعظمه ويقول له فى كثير من المناسبات :

د أنت أستاذى ويعرف له حق التربية (٣٠) . بل ذهب بيبرس أبعد من ذلك حينما أظهر الاحترام أيضاً للأستاذ الذى اشترى أيدكين وأعتقه زمن الأيوبيين وهو الأمير جمال الدين بن يغمور ، الذى كانت قد تقدمت به السن حتى عاصر الدولة المملوكية الأولى ، وأصبح موضع ثقة هذا السلطان وتقديره (٣١) . والحق أن ظاهرة اشتراك الأستاذ فى بلاط أحد مآليكه كثيراً ما أثارت دهشة المؤرخ الذى أخذ يتعجب من تقلبات القدر الذى لا يستقر أبداً على حال ، حين جعل على حد قوله من السيد مسوداً (٣٢) .

ومن أمثلة قوة الروابط بين المملوك وأستاذه الذى أعنته ما تذكره المصادر المعاصرة من أن الممالك الخاصةكية لم تهدأ تأثيرتهم ضد الأمير بيدرا قاتل أستاذهم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون إلا بعد أن قبضوا عليه سنة ٦٩٢/١٢٩٢ وحزوا رأسه (٣٣) ، وقيام الأمير كرجى باغتيال السلطان لاجين سنة ١٩٨/١٢٩٨ لياخذ أيضاً بثأر أستاذه السلطان المذكور بعدهمضى أكثر من ست سنوات (٣٤) . ومن قول الممالك السلطانية للسلطان الأشرف شعبان فى رسالة بعثوا بها إليه سنة ٧٦٨/١٣٦٦ : أنت أستاذنا وما تموت إلا تحت أقدامك (٣٥) .

ويفهم أيضاً من المصادر المعاصرة أن ولاء المملوك لم يكن قاصراً على أستاذه الذى رباه وأعنته بل كثيراً ما كان يشمل أيضاً ابن هذا الأستاذ . إذ يروى ابن تغرى بردى فى تاريخه كيف لم يوافق أمراء حلب وحماه وحمص على طاعة السلطان بيبرس الجاشنكير الذى اغتصب الحكم من السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٠٨/١٣٠٨ ، وأعلنوا تمسكهم بطاعة ابن أستاذهم المنصور قلاوون (٣٦) ، بل هبوا أيضاً لنجده والعمال على استرجاع سلطانه عندما تعنت معه السلطان بيبرس الجاشنكير أثناء فترة نفيه بالكرك ، وطالبه برد ما عنده من الممالك والخيول والأموال ، وأغلظ له فى المخاطبة ، وبعد أن كتب الناصر إليهم مذكراً بما لوالده عليهم من حق التربية والعنق والإحسان (٣٧) . ويتجلى هذا الولاء أيضاً فيما فعله الأمير أرقطاي نائب السلطنة سنة ٧٤٧/١٣٤٦ حين مضوا إليه بالسلطان المظفر حاجى وهو حاصر الرأس ، فلما رآه نزل على فرسه ورمى على السلطان قباده وقال : أعوذ بالله أقتل ابن أستاذى (٣٨) . ونسمع كذلك عن خروج الأمير إينال نائب صفد على طاعة السلطان الأشرف برسباى سنة ٨٢٥/١٤٢٢ ، لأنه خلع ابن أستاذه ططر من السلطنة (٣٩) .

وكان من الطبيعي كذلك أن يبادر الأستاذ مملوكه نفس الولاء والوفاء
ويجب ليدافع عنه وایشار له عند الضرورة/ كما حدث سنة ١٣٩٧/٨٠٠ عندما
رغب الأمير على باى فى قتل السلطان الظاهر برقوق بسبب أن أحد مماليكه
أفسد جارية من جرارى الأمير أقبای الطرفاى وكان ساكتنا بجه-وار
بيت الأمير على باى ، فلم علم الأمير أقبای بذلك قبض على مملوك الأمير
على باى وضربه نحو أربعمائة عصا ، فلما بلغ الأمير على باى ذلك تعصب
لمملوكه وطالع إلى القلعة واشتكى الأمير أقبای إلى السلطان ، فلم يلتفت
السلطان إلى كلام على باى فخلق من السلطان (٤٠) .

لهذا كان من العسير على المملوك أن يحول فجأة من شعوره وأحاسيسه
بل وأيضا من ولانه ووفائه إلى الأستاذ الجديد الذى ينتقل إلى خدمته بدليل
أن المماليك الكتابية من ميراث السلطان جقمق الذين قاموا بشرائهم السلطان
إينال وأعتقهم رفضوا الاعتراف بهذا المعتقد بحجة أن جقمق هو الذى
تعهدهم بالنزيرة فى الطباق بالقلعة ومن ثم فقد كان فى نظرهم بمثابة أستاذهم
الفعلى وقد عبروا عن ذلك بقولهم : « نحن عتقاء الظاهر (جقمق)
وتربيته فلا أصير عتيق الأشرف إينال بقطعة ورق » ، ومن ثم فقد كان
مثال عتقهم الذى رسم به السلطان الأشرف إينال فى نظرهم بمثابة قطع
ورق لا قيمة لها الأمر الذى ترتب عليه فى النهاية أن قام السلطان إينال
بطردهم من الطباق وأزلههم من القلعة عقابا لهم (٤١) . ويفهم أيضا من
المصادر المعاصرة أن خليفة هذا السلطان وهو السلطان خشقدم الأحمدى
قد تعرض لنفس المشكلة حينما علم أن الممالك الاجلاب الذين ملكهم
الأشرف إينال وأجرى عليهم العتق وقرهم وجعلهم خاصكية له ،
قد اتفقوا مع بقية زملائهم على قتله بل وقتل جميع الأمراء بالحوش
السلطاني فيما عدا واحد منهم ليسلطنونه عوضاً عن الظاهر خشقدم
الأحمدى (٤٢) .

ويعتبر التفسير في الولاء والوفاء والاخلاص الأستاذ عملاً ذمياً بدليل ما يذكره المؤرخ ابن أياس في أحداث سنة ١٣٨٩/٧٩١ بصدد منطاش مملوك الظاهر برقوق الذي اشتراه ورباه ثم اعتقه وأخرج له خيلاً وقاشاً، والذي ظهر منه بعض إفساد في القاهرة فضر به السلطان برقوق علاقة ونفاه إلى البلاد الشامية فلما عصى يلبغا الناصري السلطان النف عليه منطاش وحضر معه إلى القاهرة وحارب أستاذه برقوق أشد المحاربة وقيده ونفاه إلى الكرك ذلك حتى أرسل مراسيم بقتله فكان حال السلطان برقوق مع مملوكه منطاش كما قيل في المعنى :

كنت من كربتي أفر إليهم فهو كربتي فأين المفر (٤٣)

كذلك لم يتوان السلطان جقمق عندما علم بتآمر جماعة من المماليك على اغتيال أستاذهم الأمير تغرى بردى الدوادار الكبير ومحاصرتهم لداره سنة ١٤٤٢/٨٤٦ د من إرسال جماعة من رؤوس النوب فسكوا منهم جماعة كثيرين وضربوهم ضرباً مبرحاً ، ثم أرسل بهم أستاذهم إلى المقشرة مع الوالى (٤٤) . بيد أن مثل هذا التفسير وذلك العقوق يعتبر قليلاً إذا ما قيس بالعديد من الحالات التي حرص فيها المماليك على التعبير عن ولائهم لأسانذتهم وعن الاعتراف بفصلهم عليهم . وحسبنا أن نشير في النهاية إلى تلك العبارة المشهورة التي كان الأمير سيف الدين بلاط بن عبد الله الناصر شاد الشراب خاناه يرددّها دائماً على مسمع أستاذه الناصر فرج بن برقوق لما فيها من دلالة على قوة الروابط التي كانت تجمع بين الأستاذ ومملوكه أو بمعنى آخر بين الأب وابنه ، إذ كان يقول له : أنت أستاذى وأبى وربى ونبى ، وأنا لا أعرف أحداً غيرك (٤٥) .

ومن الروابط العائلية المملوكية التي لا تقل أهمية عن رابطة الأستاذية تلك الرابطة التي جمعت بين المملوك الصغير الذي عرف في المصطلح المملوك

باسم . إني ، كما سبق أن أوضحنا ، والمملوك الأكبر سنا الذي كان يعهد إليه برعاية الانى فى الطباق^(٤٦) ، والذي عرف فى المصطلح المملوكى باسم أغا مفرد أغوات^(٤٧) وهى لفظة يجب علينا بادية . ذى بدء أن تلفت الأنظار إلى ملاحظة هامة بصدها وهى أن كلمة أغا كثيرا ما تطلق فى المصادر المملوكية على المماليك بصفة عامة ونادرا ما تطلق على الطواشية ، على الرغم من أن أهم مميزات هذا اللفظ أن يكون صاحبه طواشيا خصيا .

وعلى الأغا كانت تقع مسؤولية تأديب الانى إذ كان أشبه بمؤدبه وكثيرا ما خصه بعطفه ورعايته وإذا حدث وقوع صدام بين المماليك فى الطباق فلم يكن الأغا ليتردد لحظة فى معاونة إنياته^(٤٨) . بيد أننا نجمل تماما أسلوب العلاقة السائدة بين الأغا وإنياته ، كما نجمل أيضا ما كان عليه أن يعاملهم بالشدة أو اللين وذلك لخلو المصادر المملوكية من التفاصيل الدقيقة الخاصة بالحياة اليومية فى الطباق وكل الذى نعرفه هو أنه فى حال معاينة الأغا لأحد الإنيات ، فغالبا ما كان يشور عليه بقية الإنيات تعصبا لزميلهم كما جاء فى أحداث سنة ١٤٥٦/٨٦٠ ، إذا يصف لنا المؤرخ ابن تغرى بردى كيف أحرق المماليك الجلباب بنظر الخاص وأخذوا عمامته من رأسه ، وكيف أدركه فى النهاية مقدم المماليك جرجان ونائبه عنبر فأخرقوا بهما أيضا ، ولكنه حصل الاشتغال بهما حتى هرب الجمالى المذكور ، وذكر المؤرخ أن سبب هذه الثورة د أن شخصا من الدوادارية الصغار يسمى سنقر قرى شبق ، ضرب بعض إنياته الذين بالطباق ، فاجتمع عليه بقية إنياته عصبة للضررب وأردوا قتله ، فهرب منهم واشتكاهم إلى السلطان فأحضر منهم جماعة وضربهم ضربا مبرحا ، فنزل أصحابهم من الاطباق ، ووقفوا عند باب القلعة فصادف ذلك خروج - الجمالى من الخدمة فأوقفوا به من غير سبب^(٤٩) . ومع هذا فمن المسلم به أن العلاقة بين الأغا وإنياته تظل وثيقة بعد عتق المماليك ومفادرتهم الطباق . إذ كان الأغا يحرص دائما على

مساعدة لإنه أو بمعنى آخر أخيه الأصغر ، ويوصى بترقيته في الرتب والوظائف المختلفة ، ومن ذلك ما ترويه المصادر المعاصرة من أن الظاهر خشقدم صار خاصكيا في دولة الملك المظفر أحمد بن شيخ بسفارة أغاته الأمير تغرى بردى قريب قصروه^(٥٠) . وكثيرا ما نجد أيضا أن الانى كان يحمل ألقاب وأسماء أغاته . إذ ذكر السخاوى في كتابه « الضوء اللامع » أن طوخ الناصرى فرج كان يعرف بطوخ مازى نسبة لأغاته مازى الظاهرى^(٥١) ، وجاء أيضا في ترجمة الأمير سودون القاضى نائب طرابلس المتوفى سنة ٨٢٣/١٤٣٠ أن « سبب تسميته بالقاضى ، أنه كان إنيا للأمير تنبك القاضى فسمى على اسم أغاته^(٥٢) » . ويكفى أن نشير هنا إلى ما حدث سنة ٨٨٧/١٤٨٢ للتدليل على مدى ارتباط الانى بأغاته ، إذ جاء فى تاريخ ابن إياس أن السلطان الأشرف قايتباى « رسم للقضاة والشهود أن لا يعقدوا للملوك من مماليكه ، حتى يأخذوا الاذن من أغاته^(٥٣) » .

وعما لا شك فيه أن الانى مهما بلغ من الرقى والنفوذ فإنه كان يظل فى العادة معترفا بمجمل أغاته حتى ولو غدا أعظم منه وظيفة ورتبة الأمر الذى يذكرنا بما كان يحدث للأستاذ عندما يتقلد احدى الوظائف فى بلاط أحد مماليكه ويشير المؤرخ ابن تغرى بردى إلى حادثة من هذا القبيل ويعتبرها أيضا من تقلبات الدهر حين يقول بصدد سودون القاضى « والعجيب أنه صار رأس نوبة النوب وأغاته تنبك القاضى من جملة رؤوس النوب العشرات يمشى فى خدمته لإنه^(٥٤) » .

والواقع أن الانى لم يكن ليتنكر لأغاته بعد وصوله إلى أعلى المناصب بل كثيرا ما اعترف باحسانه وأقر بفضلته وبحق تربيته كما فى حالة تنبك البجاسى الذى ترقى فى الوظائف حتى أصبح نائب حلب ، على حين أن أغاته جبر قطلو كان نائبا فى حماه ، ولم ينتقل إلى نيابة حلب ، الا بعد أن غدا

تنبك نائباً على الشام ، ومرجع ذلك إلى إعراف الأخير بفضل أغاته عليه وبحق التربية^(٥٥) . وتروى المصادر المملوكية المعاصرة أيضاً ، أنه حين اجتمع تنبك بأغاته جرقطلو فى حفل شهده السلطان ططر سنة ١٤٢٣/٨٢٦ اضطر تنبك إلى الجلوس فى الجانب الذى يجلس فيه أغاته حتى لا يطل عليه من مجلسه لأنه يضطرب فى حضرته ، وأيضاً لئلا يجلس فوقه حياه منه^(٥٦) .

وكان من الطبيعي أيضاً أن يعتبر الأغا تعيين الاى رئيساً عليه فى إحدى الوظائف المملوكية بمثابة إهانة كبرى ألحقت به ولم يكن ليتردى فى الانتقام من الاى بدافع من الحقد وذلك فى أقرب فرصة مواتية . إذ نقرأ فى المصادر المملوكية أن الطنبغا الماردانى صار يقف فوق التمرناشى وهو أغاته ، فشق ذلك عليه وكنم فى نفسه إلى أن ملك السلطان الصالح إسماعيل فتمكن حينئذ التمرناشى ، وصار الأمر له وعمل على الماردانى ، فلم يشعر الأخير إلا وقد أخرج على خمس رؤوس من خيل البريد إلى نيابة حماة فى شهر ربيع الأول سنة ١٢٤٢/٧٤٣^(٥٧) . ونقرأ أيضاً أنه أثناء نفي تمر بغا الظاهرى الدوادار فإن وريثه جانبك الدوادار أصبح عظيم الممالك الظاهرية جقمق ، ولكن بعد عودة الأمير تمر بغا من النفي جلس فوق الأمير جانبك . لكونه كان أغاته بطبقة المستجدة وذلك لعظمته فى النفوس وسبقه للرئاسة^(٥٨) . ،

ويفهم كذلك من المصادر المملوكية أنه لى يصل المملوك إلى منصب السلطنة أو إلى أتابكية العساكر ، كان يجب أن يتوفر فيه بعض الشروط لعل من أهمها أن يكون أغا لعدة من الممالك فقد روى المؤرخ ابن تغرى بردى فى أحداث سنة ١٤٢٣/٨٢٥ أن الأمير برصباى قد خلا بالأمير تنبك نائب الشام وتكلم معه واستشاره فيمن يكون سلطاناً على الديار المصرية تجتمع الناس على طاعته ، وعرض عليه منصب السلطنة قائلاً : « فانت أغاتنا

وكبيرنا وأقدمنا هجرة ، بيد أن الأمير تفبك استعاذ من ذلك وقال لبرسباي
« ليس لها غيرك (٥٩) » .

وتتضح أيضا أن أهمية الأغا من خلال احترام المماليك له وتسليمهم بما
يقوم به من أعمال حتى ولو كانت في بعض الأحيان ضد مصالحهم الخاصة .
وحسبنا أن نشير هنا إلى ما جاء على لسان الأمير سودون من عبد الرحمن
الذي ذهب عام ١٤٢١/٨٢٤ مع الأمراء إلى الأمير جانبك الصوفي ليقول له :
« أنت كبير ناور ئيسنا وغاتنا ، ونحن راضون بك فيما تفعل وتريد (٦٠) » . وعلى
هذا فيمكن القول أن أقدمية المملوك كانت تراعى دائما عند تقلد الوظائف
الهامة في الدولة وفي الجيش المملوكي بدليل أن الأمير أسندمير النوري قد
أنكر على السلطان جقمق عدم ترقية في وظائف الدولة على الرغم من أنه
من أنيأت أخيه الأمير جاركس (٦١) .

ولسنا أيضا بحاجة إلى التأكيد بأن التصرف السيء من جانب الانى في
حق أغاته كان يعتبر من الأخطاء الكبرى التي لا تغتفر ، فقد حدثنا المؤرخ
المملوكي ابن تغرى بردى أنه بعد أن ظفر تغرى برمش بجماعة من الحلبيين
بعد قتاله معهم سنة ١٤٢١/٨٢٤ أمر بقطع أيديهم وبالغ في الإضرار بالناس
لدرجة أن هذا المؤرخ ذهب إلى الترجيح بأنه لو كان لتغرى برمش على
أهل حلب دولة لفعل فيهم أعظم من فعل تيمور لنك لقله دينه وجبروته ،
الذي دفعه ، على حد زعم هذا المؤرخ ، إلى قتل أغاته (٦٢) .

ويفهم أيضا من المصادر التي وضعت على عصر سلاطين المماليك أن كلا
من الأغا والانى تمتعا بمركز ممتاز في الدولة المملوكية بدليل أننا نلاحظ أن
بعض السلاطين براعون في أحكامهم ، أن الشخص المحكوم عليه كان
من الاغوات أو الانيات في وقت من الأوقات ، وبالتالي كانوا يعتمدون

غند ذلك إلى التخفيف من أحكامهم عليه ، ومن ذلك ما جاء في أحداث سنة ٨٢٦/١٤٢٣ من تاريخ ابن تغرى بردى ، عندما رسم السلطان الأشرف برسبای بتوجه أسندمر النورى بطالا إلى نغر دمیاط لتفريظه في أمر جانبك عدو السلطان ، الذى نجح في الفرار من سجنه . ويعلق المؤرخ عل هذا بقوله أن أسندمر المذکور كان من أغوات السلطان برسبای ومن أكابر أنیات الأمير جركس القاسى المصارع لكان له معه شأن آخر (٦٣) .

وعلى ذلك فن الواضح أن علاقة الآنى بأغانه تكاد تشبه علاقة المملوك بأستاذه بدليل حرص الأغا على اصطحاب إنياته في أسفاره ورحلاته كما حدث عام ٨٦٢/١٤٥٧ عندما استقر مرجان مقدم الممالیک السلطانية أمير حاج الركب الأول ، فلما سافر أخذ معه جماعة كبيرة من إنياته الممالیک الأجلاب (٦٤) . ولكن هذا لا يعنى أن الأستاذ والأغا أصبحا من درجة واحدة بدليل أن الأخير كثيراً ما لعب دور الوسيط بين الخشداشية والأستاذ (٦٥) .

ويحق لنا الآن أن نتساءل عن عدد الأغوات المقررين لكل طبقة من الطباق الموجودة بالقلعة ؟

الواقع أنه من الصعب الإجابة على هذا السؤال ، خاصة وأن المصادر المملوكية التى تحت أيدينا قد ضنت علينا بمعلوماتها في هذا الصدد ، كما ضنت علينا أيضاً بمعلوماتها عن عدد الإنيات الذى كان يشرف عليه كل أغا ، كذلك من الصعب علينا أن نؤكد عما إذا كان أولئك الأغوات من بين الممالیک الذين تم عتقهم قبل أن يعمد إليهم بالأشراف على الإنيات في الطباق ، لاسيما وأن كل مالدينا من معلومات ينحصر في وجود مشرف واحد لكل طبقة من بين الممالیک الذين تم بالفعل عتقهم وهذا الأخير كان يعرف باسم أغا الطبقة ، وهو ليس من بين الطواشیه الخصيان ، لذلك يجب ألا نخلط بينه وبين مقدم الطبقة الذى عرف أيضاً باسم طواشى الطبقة أو خدام الطبقة (٦٦)

أو سواق الطبقة^(٦٧)، كما وقع في هذا الخطأ بعض المستشرقين^(٦٨)، إذ أن من أهمميزات هذا الأخير أن يكون من بين الطواشية الخصيان وذلك لمدة أسباب لعل أهمها جميعاً هو الحرص على سلامة الممالك الأحداث الذين كانوا يودعون الطباق وهم في سن مبكرة، وخوفاً عليهم من الشذوذ الجنسي الذي إبتلى به المجتمع المصرى في العصر المملوكى^(٦٩). حقيقة أن أغا الطبقة ومقدم الطبقة وظائف كل منهما غير واضحة المعالم لكننا على يقين تام بأن أغا الطبقة لم يكن من بين الطواشية الخصيان بدليل ما ذكره المصادر المملوكية من أن الأمير جركس القاسمى المصارع كان أغا لطبقة الزمام^(٧٠) وثانى بك البجاسى أغا لطبقة الرفوف وكان له إبناً يدعى أحمد، زودنا السخاوى بترجمة له^(٧١). كما تشير المصادر المملوكية إلى أغا طبقة الميدان المعروف باسم نوروز المجنون^(٧٢). وحسبنا أن نذكر في النهاية أن السلطان الغورى قد طلب من أغوات الطباق سنة ١٥١٦/٩٢٢ أن يقوموا بتطبيق زوجاتهم حتى لا ينظر أحد منهم خلفه عند خروجه لمحاربة العثمانيين^(٧٣). وفي ذلك أيضاً خير دليل على أن أغوات الطباق لم يكونوا من بين الطواشية الخصيان.

ونجد في المصادر المملوكية أيضاً ما يشير إلى أن لفظ أخوة يرادف لفظ خشداشية، حقيقة أن كلمة أخوة تعنى الأخوة في الميلاد وليس الأخوة في الأفكار وفي الدين وفي المبادئ، الذين يطلق عليهم عادة لإخوان. ومع ذلك فقد أمدتنا المصادر المعاصرة بالعديد من الحالات التى تقوم دليلاً على أن لفظ أخوة يرادف لفظ خشداشية ومن ذلك قول كتبغا عند سلطنة لاجين سنة ١٢٩٦/٦٩٦ «أنه خشداشى وأنا وهو شىء واحد»^(٧٤)، أما لاجين فقد قرر من جهته عند فرار كتبغا إلى الشام بعد سلطنة لاجين بأنه لو أراد القبض على كتبغا لما كان ذلك أمراً شاقاً عليه، «غير أن كتبغا كفانا ذلك لأنه من أخوتنا»^(٧٥). وكذلك نجد أن السلطان لاجين يحاول من تهمة ثورة لإخوانه فيقول لهم فى إحدى المناسبات مامعناه، أنكم لن تتعرضوا

مرة أخرى لما سبق أن تعرضتم له من ممالك كتيغا ، لأنكم خشداشيني وعمل إخوتي (٧٧) ، . وتروى المصادر أيضاً أن السلطان الظاهر جقمق قد عهد بنبابة غزة إلى الأمير طوخ بن عبد الله الأيوبرى بتوصية من إخوته المؤيدية أى ممالك السلطان المؤيد شيخ (٧٨) . وجاء أيضاً على لسان الأمير يلبغا ، بعد أن أحرز نصراً على السلطان الظاهر برقوق ، الذى أرسل إليه يطلب منه أماناً لنفسه سنة ١٣٨٩/٧٩١ ، لرسول السلطان مانصه « الملك الظاهر أخونا واخشداشنا ولكننا نخشى بئس كان إلى أن نخمد الفتنة فإن الآن كل واحد له رأى وكلام (٧٩) ، . ونقرأ أيضاً فى أحداث سنة ١٤٣٨/٨٤٢ أنه فى « يوم الثلاثاء ثالث عشر صفر وقف جماعة من الأشرافية تحت القلعة بغير سلاح ووقع بينهم وبين خشداشيتهم الذين من طبقة الأشرافية من إنيات إينال وأخوته وقعة هائلة بالدبابيس (٨٠) . »

كل هذه النصوص تثبت بما لا يقبل الشك أن لفظ أخوة رادف لفظ خشداشية ، لذلك لا عجب إذا جرت العادة فى تلك الفترة من تاريخ مصر تحت حكم سلاطين الممالك أنه كلما كثرت خشداشية أمير من الأمراء تبعها بالتالى ازدياد فى مكانته لا فى البلاط المملوكى فحسب بل أيضاً فى الدولة كلها ، إذ تروى المصادر المملوكية أنه فى سنة ١٢٥٣/٦٥١ صار الأمير أقطارى زعيم الممالك البحرية ، وهم أقوى الفئات المملوكية حينذاك ، فأضحى لا يقدر أحد من الأمراء أن يفتح كتاباً ولا يتكلم بشئ ولا يبرم أمراً إلا بحضوره لكثرة خشداشيتيه . لذلك بعد مقتل أقطارى هذا بتدبير من السلطان أيبك ومملوكية قطز فى العام التالى سنة ١٢٥٤/٦٥٢ سارعت خشداشية من البحرية بالتحرك (٨١) الأمر الذى ترتب عليه تخرج مركز السلطان عز الدين أيبك ، فأخذ رأيهم ويعمل على إبعادهم حتى تم تشريدهم فى الشام وآسيا الصغرى ، حيث عملوا على خلق المشاكل له ، بل ساعدوا أيضاً على اغتياله (٨٢) .

كذلك حرص بعض الخشداشية على تولية السلطنة إلى أحد زملائهم وفي حالة نجاحهم فإنهم لم يكونوا ليرددوا لحظة في مساندة السلطان الجديد، الذى كان إذا اطمأن إلى ولاء خشداشيته فسرعان ما يعمل على رفعهم إلى أعلى الرتب والمناصب ويعهد إليهم بالوظائف الرئيسية (٨٣) ، بل وكثيراً ما كان يعمل إلى إقصاء الأمراء من ذوى السلطة والتفوذ ، وأيضاً أصدقائهم حتى لا يكونوا شوكة في ظهره ولا عائقه أمام خشداشيته . والتاريخ المملوكى ملئ بالأحداث التى تظهر بوضوح مدى الروابط الوثيقة بين الخشداشية ومدى التضامن المتبادل الذى كان يجمعهم تحت رئاسة واحدة ، ولعله من المناسب أن نشير هنا إلى ما يذكره المؤرخ المملوكى ابن تغرى بردى فى معرض ترجمته للأمير جانبك نائب جندة من د أنه صار فى أيام انحطاط قدر خشداشيته الظاهرية فى الدولة الأشرفية إينال كالستر عليهم بالإناعام والإعطاء وقضاء حوائجهم والذب عما يقع منهم والقيام بعمل مصالحهم مع كثرة عددهم وإختلاف مواضعهم ومحل إقامتهم فى أى بلد كانوا فيها واستمر ذلك منه لم يدهر طويلاً وهو لا يكل ولا يمل من ذلك (٨٤) .

وتشير المصادر أيضاً إلى حالة السلطان بيبرس البندقدارى الذى حرص على إستمالة خشداشيته من البحرية بتأمير عدد منهم والتجاوز أيضاً عن سيئات بعضهم مثلاً فعل مع الأمير سنجر الحلبى نائب دمشق الذى أعلن العصيان والاستقلال ببلاد الشام . بيد أن السلطان بيبرس أخذ فى العمل على إصلاح أمره معه (٨٥) ، وإلى حالة السلطان المنصور قلاوون الذى جرى على تكريم خشداشيته ، عندما عين الأمير سنجر نائباً على الشام بعد أيام من سلطنته سنة ٦٧٨/١٢٧٩ ، كما قرب إليه الأمير بلبان وصار يرعى له حق الخشداشية ويعوده أثناء مرضه فى بيته (٨٦) .

كذلك حرص الخشداشية على الوفاء لبعضهم البعض والعمل على إنقاذ من يقع منهم في محنة ، ومن ذلك ما يرويه المقرئ في حوادث سنة ٧٠٩ / ١٣٠٩ عندما قرر السلطان الناصر محمد بن قلاوون مع مماليك القبط على بعض الأمراء ، د وأن كل عشرة يقبضون أميراً ممن عينه لهم ، بحيث تكون العشرة عند دخول الأمير محتفة به ، فإذا رفع السباط واستدعى السلطان أمير جاندار^(٨٧) قبض كل جماعة على من عين لهم . فلما حصل الأمراء في الخدمة أحاط بهم المماليك ففهموا القصد ، وجلسوا على السباط ، فلم يتناول أحد منهم لقمة . وعندما نهضوا أشار السلطان إلى أمير جاندار ، فتقدم إليه وقبض المماليك على الأمراء المعينين ، وعدتهم اثنان وعشرون أميراً ، فلم يتحرك أحد لقبضهم من خشداشينهم ، وبهت الجميع^(٨٨) . وقرأ أيضاً في نجوم ابن تغرى بردى أن خشداشية الأمير حسام الدين لاجين قبلوا الأرض بين يدي السلطان قلاوون وسألوه العفو عند زميلهم وأخوهم ، وذلك بعد أن قبض عليه لتحريضه بعض الأمراء بالخروج عن طاعته فاستجاب السلطان لهم وأطلق مراحه ، بل وأعادته إلى رتبته تكريماً لخشداشيته^(٨٩) ، ويذكر المؤرخ نفسه أن السلطان لاجين قد أقر كتباً في نيابة صرخد بالشام ، بعد أن طرده السلطان لاجين من السلطنة سنة ٦٩٦ / ١٢٩٦ وذلك لأنه خشداشة^(٩٠) .

ومن مظاهر وفاء الخشداشية وحبهم لبعضهم البعض حرصهم على الأخذ بيد من يتخلف منهم في الترقى إذ جاء في ترجمة الأمير سيف الدين يونس ابن عبد الله العلائي المتوفى سنة ٨٦٤ / ١٤٥٩ د أن أصله من مماليك الظاهر برفق السكناوية ، ثم ماله الناصر فرج وأعتقه ودام من جملة المماليك السلطانية سنين كثيرة لا يلتفت إليه في الدولة إلى أن تأمر عشرة في أوائل دولة السلطان الظاهر جقمق مراعاة لحاظ الأمير اينال العلائي الأجروود ، لأنه كان خشداشه من تاجر واحد^(٩١) .

ولم يصل الأمير كتبغا بن عبد الله الحموي اليلبغاوى إلى وظيفة أتابك
العساكر بالديار المصرية زمن السلطان برقوق إلا لكونه خشداشه، فكلاهما
ملوك الأمير يلبغا العمري أتابك العساكر أيام السلطان حسين بن شعبان^(١٢).

وجاء في نفس المصدر أيضاً أن ابن عبد الله القلطاوى لم يترق إلى إمرة مائة
وتقدمة ألف بالديار المصرية إلا بسبب كونه خشداش السلطان برقوق^(١٣)
كذلك يسجل لنا السخاوى أن السلطان الظاهر خشقدم قد اشتهر بالعطف
على خشداشيته والعمل على ترفيتهم دائماً والأخذ بيد من كان قد تخلف منهم .
ونذكر على سبيل المثال الأمير قائم من صقر خجا الجركسى الذى صار
أتابك العساكر ، فعظم أمره ونالته السعادة وقصده الناس فى الحوائج ،
وعمر الاملاك الكثير^(١٤) ، ومغلباى طاز الايوبكرى الذى جعله خشداشه
خشقدم أمير طبلخاناه دفعة واحدة^(١٥) .

وبلغ من تكريم بعض الأمراء لخشداشيتهن أن الأمير جمال الدين
أفوش السلحدار قد أوصى سنة ١٢٧٨/١٢٧٩ حسبا جاء فى تاريخ ابن تغرى
بردى بأن يدفن بعد وفاته عند خشداشه أيدكين البندقدارى نائب دمشق
وأستاذ السلطان الظاهر بيبرس^(١٦) .

وتروى المصادر أيضاً أن الخشداش كان كثيراً ما يستولى على موجود
زميله وأخاه إذا توفى أثناء معركة من المعارك^(١٧) بل ذهب أيضاً إلى
الاستيلاء على إقطاعات من مات من أخوته وزملائه فى الوباء كما حدث
بمصر سنة ٨٩٧/١٤٩٢ أيام السلطان الأشرف قايتباى^(١٨) .

وكان من الطبيعى أن يقابل ما يكتنه الخشداشية من الحب والولاء لبعضهم،
كراهية شديدة لغيرهم ممن لم يكونوا من إخوتهم وزملائهم ، بدليل أن حالة
المملوك الذى كان يتعرض لسخط أولئك الخشداشية كانت كثيراً
ما تقابل بشئ من الرثاء والعطف من جانب المؤرخين الذين دونوا لنا

تاريخ تلك الفترة من عصر سلاطين المماليك ، والذين كانوا يطلقون على هذا المملوك لفظ أجنبي أو غريب^(١١) .

وحسبنا أن نشير هنا إلى ما يذكره المؤرخ ابن تغرى بردى بصدد الأمير بكتر الساقى الذى كان يعتبر غريباً فى قصر السلطان الناصر محمد ابن قلاوون ، ذلك أنه لم يكن له خشداش وكان وحيداً بسبب تحيز جميع الخاصكية ضده برغم حظوته عند السلطان المذكور^(١٢) . كذلك كان شأن الأمير طقزدمر الخوى ، إذ اعتبر غريباً فى بيت السلطان لأنه لم يكن له خشداش ، برغم تربيته فى بيت المنصور قلاوون أثناء إمارته^(١٣) .

كما أطلقت بعض المصادر على الأمير جانبك الصوفى صفة المجنون ، لتركه خشداشيته وميله إلى يشبك الجسكى ، وهو رجل غريب وليس له شوكة ولا حاشية^(١٤) . ولعل أهم ما يبرز العلاقات الوثيقة بين الخشداشية بعضهم البعض أن شجرة الدر اعتبرت نفسها خشداشاً للمماليك الصالحية رغم كونها امرأة واستطاعت بمساعدتهم ومعونتهم أن تتولى السلطنة ، بل حاول خشداشيتها من هؤلاء الصالحية بكل قوتهم أن يحولوا دون قتلها ، غير أنهم فشلوا فى تحقيق ذلك إزاء حرص ممالك زوجها السلطان عز الدين لمليك على الأخذ بثأر أستاذهم الذى دبرت شجرة الدر اغتياله^(١٥) .

لذلك كان من الطبيعى أن يكون تذكر السلطان الخشداشيته بمثابة نذير خراب ودمار سلطنته بدليل ما حدث بعد سلطنة لاجين سنة ١٢٩٦/١٢٩٦ بمحاولة خشداشيته غير أنه مرعان ما نسى ما قطعه على نفسه لهم من عهود ومواثيق ، وعهد إلى مملوكه منكوتر بزيادة السلطنة ، فاستبد بالأمراء من خشداشية وأخوة السلطان لاجين ، فكان ذلك حسب قول المؤرخ ابن تغرى بردى بمثابة د وبالاً على كليهما^(١٦) .

يبد أن هذا الترابط الواضح بين الخشداشية بعضهم البعض لم يمنهم في بعض الأحيان من الانقسام على أنفسهم ، خاصة عند تنصيب أحد السلاطين الجدد ، وذلك عندما ينحاز فريق منهم إلى جانب أمير ، وينضم فريق إلى جانب أمير آخر منهم ، وكان كثيراً ما يترتب على هذا الانقسام وتلك الفرقة نشوب الحروب الداخلية من أجل الوصول إلى العرش والفوز بالسلطنة . والتاريخ المملوكي مليء بمثل هذه الحوادث ، وإن كان أشهرها على الإطلاق ما وقع بين أيك وأقطاي ، وبين لاجين وكتبغا ، وبين برقوق وبركة الجوباني (١٠٥) .

كما سبق يتضح لنا أن العائلة المملوكية كانت تتألف أساساً من الأستاذ وهو الأب ، والخشداش وهو الأخ ، والأغا وهو الأخ الأكبر والآني وهو الأخ الأصغر بدليل أن كل من لم يكن عضواً في هذه العائلة كان يعتبر بمثابة غريب أو أجنبي ، كما سبق أن نوهنا ، يعيش في رحاب وكرم هذه العائلة المملوكية ، ويتجلى هذا بوضوح أيضاً من ملاحظة أحد المعاصرين عن المماليك السيفية (١٠٦) وهم الذين ينقلون من خدمة أمير إلى خدمة سلطان . إذ يتحدث عنهم بلهجة ملؤها السخرية والاستخفاف فيقول : «السيفية أعنى عالىك الأمراء الذين خدموا في باب السلطنة بعد موت أسانذتهم ، وهم كل شيء لأنهم في الغالب ، مع الغالب ولا يكثر أحد منهم بسلطان بعينه ، غير أن من تسلطن صاروا له عالىك كما هو مثل العامة من تزوج بأمرى صحت له يا أبي (١٠٧) » .

بجمل القول أن هذا المؤرخ يعيب على تلك الفئة من المماليك تفكك أواصر الروابط بينهم بعد توزيعهم وتفريقهم الواحد عن الآخر . إذ أنه كتب عليهم أن يخدموا في مجموعة لا تربط أفرادها أية صلة عائلية ومن ثم فقد عرفت هذه الطائفة باستقلالها وبجرمانها أيضاً من الحياة العائلية ، ونقصدها طبعاً العائلة العسكرية المملوكية .

الحواشي

(١) Lecerf, Notes sur la famille dans le monde arabe et Islamique, Arabica, I (1956), pp.30—40.

(٢) Ahmad Abd ar-Raziq, la femme au temps des Mamluks en Egypte, Le Caire 1973, pp. 123—174.

(٣) Ahmad Abd ar-Raziq, la Femme, pp. 164—170.

(٤) D. Ayalen, L'Esclavage du Mamluk, Jérusalem 1951, pp. 27—31.

(٥) لفظة معربة لأنه يقال لأنه ليس في اللغة العربية كلمة أصلية تجتمع فيها الذال والسين ، انظر : القاموس المحيط مادة « سيدة » . وأستاذ معربة عن كلمة أستاذ الفارسية وهي تعني السيد أو المشهور بعمله انظر : محمد موسى هندأوى ، المعجم في اللغة الفارسية وقد كان لقب الأستاذ يطلق في عصر المماليك أيضاً على التاجر أو السيد الذي يشتري المملوك ويقوم بتربيته ولعل خير دليل على ذلك ما ذكره حسام الجري بصدد سفارته إلى المملوك غازان حين ذكر له ما نصه « لانا نحن يشترون التجار من البلاد ونحن صفار والتاجر الذي يشترينا يسمينا باسمه وكان لاسم أستاذي مجير الدين فلقبوني المجيري » انظر :

Zetterstéen, Beitrage zur geschichte der mamluken : sultane Leiden 1919, p. 101.

بيبرس الدوادار ، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة ، مخطوط بالمتحف البريطاني تحت رقم ٢٣٣٣٢٥ ، ورقة ٩٨ أ ؛ حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، ج١ ، ص ٥٩—٦٣ ؛ سعيد عاشور ، انصر المماليكي في مصر والشام ، والقاهرة ١٩٦٥ ، ص ٣٨٩ .

(٦) كلمة أغا أصلها آقا وهي من كلمات اللغة المغولية ، ومعناها الأخ الكبير وترد كثيراً في تاريخ المغول وقد دخلت هذه الكلمة في اللغة الفارسية واستخدمها الكتاب الذين جاءوا بعد غزو جنكيز خان ، وجمعها آقان أو آقوان أو آقايان . انظر : عبد اللطيف إبراهيم ، الوثائق في خدمة الآثار ؛ ص ٢٩ ؛ حسن الباشا ، الفنون والوظائف ، ج١ ص ٣٦ .

(٧) كلمة لاني أو لاني جمعها لانيات أصلها ليناك أو ليناكاه وهي من كلمات اللغة المغولية وتعني الأخ الصغير وهي من الكلمات المألوفة أيضاً في تاريخ المغول انظر .

Pevet de Courteille. Dietiemmaire turk-eriemtal , Paris 1870, P. 138,

ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٨٣٩ ؛ ج ٧ ، ص ٧ ، ٦١٢ ؛ المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس تحت رقم ٢٠٦٨ — ٢٠٧٣ ، ج ٣ ، ورقة ١٦٤ أ ؛ ج ٤ ، ورقة ٢١٠ ب ؛ ابن لباس ، بدائع الزهور ، طبعة كالة ومحمد مصطفى ، ج ٤ ، ص ٩ ، ٣٠٧ .
(٨) خشدانش أو خجدانش معرب اللفظ الفارسى خواجاناش أى الزميل فى الخدمة أو الرق أو العتق .

انظر المقرئى ، السلوك فى معرفة دول الملوك ، القاهرة ١٩٣٤ — ١٩٧٢ ، ج ١ ، ص ٦٣٦ ؛ ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ١ ؛ ورقة ١٨٣ أ ، سميح عاشور ، العصر المماليكى ، ص ٤١٣ ؛ السيد الباز العرينى ، الممالك ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٤١ ، ٢١١ ؛ عبد المنعم ماجد ، نظم دولة سلاطين الممالك ورسومهم فى مصر القاهرة ١٩٦٤ ، ج ١ ، ص ١٨ .

(٩) المقرئى ، السلوك ، ج ٣ ، ص ٣٩٠ .

Muir, The mamluke or slave dynasty of Egypt, London (١٠) 1896, p. 225.

(١١) المقرئى ، المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، ج ١ ، ص ٨٧ — ٨٨ .

(١٢) انظر حجة وقف السلطان الغورى (أرشيف وزارة الأوقاف رقم ٨٨٣) .

(١٣) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥٩٩ .

(١٤) ابن تغرى بردى ، المنهل الصافى : ورقة ٥٥ ب ؛ النجوم الزاهرة ، طبعة القاهرة ، ج ٨ ، ص ١٠٠ .

(١٥) ابن لباس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ١٨٩٣ — ١٨٩٥ ، ج ١ ، ص ٢٧١ ؛ حكيم أمين عبد السيد ، قيام دولة المماليك الثانية ، القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٧١ .

(١٦) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٥ ، ص ٤٠٠ ؛ ابن لباس ، بدائع الزهور ، ج ١ ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣ ؛

Ahmad Abd ar-Raziq, La Femme, p. 182, Ayalen, L'Esclavage, p. 35.

(١٧) تاريخ ابن الفرات ، بيروت ١٩٣٦ — ١٩٤٢ ، ج ٩ ، ص ١٨١ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٣٧٧ ، ٥٧٨ ؛ السخاوى ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ١٣٢٥ — ١٣٥٥ هـ ، ج ٣ ، ص ٦٦ ؛ ج ٤ ، ص ٢٢٦ .

(١٨) السخاوى ، الضوء اللامع ج ٣ ، ص ٢٨٦ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٠٨ ؛ ج ٤ ، ص ٨ ، ١٠ ، ١٢ ؛ ج ٦ ، ص ٢٠١ .

(١٩) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٣٧٧ ، ٣٧٨ ،
منتخبات من حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور ، كاليفورنيا ١٩٣٠ - ١٩٤٢ ،
ص ٧٢٠ ؛ المنهل الصافى ، ج ١ ، ورقة ٣٦ ب ، ١٩٩ ب ، ٢٠١ ، ٢٠٥ ب ؛ ج ٢ ،
ورقة ١٩٦ أ ، ١٥٧ ب ؛ ج ٥ ، ورقة ١٨ ، ١٠ ب ؛ السخاوى ، الضوء اللامع ج ٣ ، ص ٦٦ ؛
ج ٦ ، ص ١٨٤ ، ٢٢٦ .

(٢٠) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٢ ، ص ٣١٧ ، ٣٢٠ ؛ ج ٣ ، ص ٢٦ ؛ ابن خلدون
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والبربر ، القاهرة ١٨٦٧ - ١٨٦٨ ،
ج ٥ ، ص ٣٨١ .

(٢١) ابن تفرى بردى حوادث الدهور ، ص ٧٢٠ ؛ المنهل الصافى ، ورقة ٤٢١ ب ؛
النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٥٧٩ ، ٥٩١ ؛ ابن حجر العسقلانى ، الدرر السكّانة
فى أعيان المئة الثامنة ، حيدرآباد ١٩٢٩ - ١٩٣٢ ، ج ١ ، ص ٣٩٥ ؛ ج ٢ ، ص ١٧٤ ،
السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٨ ، ٦٠ ، ٦٦ ، ص ١٩٥ .

(٢٢) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٣٧٧ .

(٢٣) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٥٥٥ .

(٢٤) تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ١٨٠ ، ٤٤٤ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ،
طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٥٧٩ ، ٥٩١ ، ٦٠٠ ، ٦١٥ ، ٧٦٧ ؛ ٧٧٥ ، ٧٩٣ ،
حوادث الدهور ، ص ٧١٩ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٨ ، المنهل الصافى ، ج ١ ،
ورقة ١٥٦ ب ، ابن حجر ، الدرر السكّانة ، ج ١ ، ص ٣٩٥ ، ٤٢٨ ، ٤٨٠ ، ج ٢ ،
ص ١٧٤ ، ٣ ، ص ٣٧٠ ، ج ٤ ، ٤٨٩ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٨ ، ٦٠ ،
ج ٦ ، ص ١٩٥ .

(٢٥) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٧ ، ص ٤ ، طبعة كاليفورنيا ،
ج ٧ ، ٣٠٨ ، ٥٧٣ ، المنهل الصافى ، ورقة ٢٦٤ ب ، ابن لياس ، بدائع الزهور ، طبعة
بولاق ، ج ٢ ، ص ١٨٥ .

(٢٦) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٧ ، ٣٠ ، المفريزى ، السلوك ، ج ٢ ،
٣٤٢ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٣١٩ ، حوادث الدهور ،
ص ٦٤٥ ، السخاوى ، التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، القاهرة ١٨٩٦ ، ص ١٩١ .

ومع هذا فن الملاحظ أن لفظ مخدوم كان يعتبر بمثابة مرادف للفظ أستاذ ، انظر :
تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٢٣ ، ٥٢ ، ٦٤ ، ١١٧ ، ١٢٧ ، ١٣٨ ، ١٥٨ ، ١٧٤ ،
٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ابن تفرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ١ ، ورقة ١٥٨ ب .

(٢٧) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٥ ، ص ٤٥٢ ، ٢٥٤ ،
٤٥٥ ، ج ٢٦٤ - ٢٦٥ ، ٣٨٤ ، تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ٨٩ ، ١٠١ ،
١٠٧ ، ١٤٣ ، ١٦٢ ، ابن قاضى شعبة ، الأعلام بتاريخ الإسلام ، مخطوط بأكسفورد
تحت رقم ١٤٣ ، ورقة ٣٩ ب .

- (٢٨) ابن تفرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ١٧٤ ، ابن لباس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج ٢ ، ص ٢٤٧ ، ٢٩٤ .
- (٢٩) Zetterstéen, Geschichte, pp 41,51 ، ابن كثير ، البداية والنهاية فى التاريخ ، القاهرة ١٩٣٢ — ١٩٣٩ ، ج ١٤ ، ص ٢٨١ ، المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٨٢٠ ، ٨٣٢ ، ج ٢ ، ص ٥٧ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٨ ، ص ١٠٣ ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٣ ، ج ٧ ، ص ٨٤ ، ٤١١ ، حوادث الدهور ، ص ١٣٢ .
- (٣٠) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٦٥ ، المنهل الصافى ، ج ٢ ، ورقة ٣٤ ب .
- (٣١) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٧ ، ص ٣١٨ — ٢١٩ .
- (٣٢) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٧ ، ص ٣٦٦ .
- (٣٣) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٨ ، ص ١٩ .
- (٣٤) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٨٦٦ .
- (٣٥) ابن لباس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج ١ ، ص ٢٢٠ .
- (٣٦) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٨ ، ص ٢٢٩ .
- (٣٧) بيبس أندوادر ، زبدة الفسكرة فى تاريخ الهجرة ، مخطوط بالمتحف البريطانى تحت رقم ٢٣٣٢٥ ، ج ٩ ، ورقة ٤٨٤ ، ٤٨٥ .
- (٣٨) ابن لباس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج ١ ، ص ١٨٩ .
- (٣٩) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٥٦٠ .
- (٤٠) ابن لباس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج ١ ، ص ٣١١ .
- (٤١) ابن تفرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٤٦٩ .
- (٤٢) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٧١٩ .
- (٤٣) ابن لباس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج ١ ، ص ٢٨٠ .
- (٤٤) العيني ، عقد الحمان فى تاريخ أهل الزمان ، مخطوط باستنبول تحت رقم ٢٣٩١ — ٢٣٩٤ ، نخلد ٧٠ ، ورقة ٧٢٨ ، ابن تفرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٦ .
- (٤٥) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٤٣٦ .
- (٤٦) ابن تفرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٢ ، ورقة ١٢١٦ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٣٢٢ ، ج ١٠ ، ص ٢٧٢ ، ابن لباس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج ١ ، ص ١٦٨ .
- (٤٧) ابن لباس ، بدائع الزهور ، طبعة كالة ومحمد مصطفى ، ج ٣ ، ص ٢٤٠ ، ٢٨٦ ، ابن تفرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٢ ، ورقة ١٧٣ ب ، ج ٣ ، ورقة ٢٧٧ ،

ج ٤ ، ورقة ٢٩٦ ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٤٧٩ ، ج ٧ ، ص ٩٧ ،
٢٦٠ ، ٦٨٨ .

(٤٨) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٥٢٨ .

(٤٩) ابن تفرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ١٥٠ .

(٥٠) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٦٨٨ ، المنهل الصافي

ج ١ ، ورقة ١٦٥ ب ، ج ٢ ، ورقة ١٧٣ ب ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٣ ،
ص ٢٨١ .

(٥١) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٩ .

(٥٢) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٤٦٩ .

(٥٣) ابن لياس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج ٢ ، ص ٢١٥ .

(٥٤) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٤٦٩ ، المنهل الصافي ،

ج ٢ ، ورقة ١٧٤ أ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٣٠ .

(٥٥) ابن تفرى بردى ، المنهل الصافي ، ج ١ ، ورقة ١٧٤ أ ، ج ٣ ، ورقة ١٧٠ أ ،

النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ١ ، ص ٤٦٩ .

(٥٦) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٥٦٦ .

(٥٧) المقرئى ، خطاط ، ج ٢ ، ص ٣٠٨ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة

كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٦٩٥ .

(٥٨) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٦٩٥ .

(٥٩) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٥٤٣ ، ٧٤٩ .

(٦٠) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٥٢٥ ، ٥٣٩ ، المنهل

الصافي ، ج ٢ ، ورقة ٤٢ ب ، ٥٥ أ .

(٦١) ابن تفرى بردى ، المنهل الصافي ، ج ٢ ، ورقة ٢٢٦ أ .

(٦٢) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٣ ، ص ٩٧ .

(٦٣) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٥٦٩ .

(٦٤) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٤٩٨ .

(٦٥) انظر : Ayalon, L'Esclavage, p. 33.

(٦٦) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٣١٥ ، السخاوى ،

الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ١٥٣ .

(٦٧) تاريخ ابن الفرات ، ج ٩ ، ص ١١٥ ، ابن شاهين ، زبدة كشف المالک ،

باريس ١٨٩٤ ، ص ١٢٢ ، الغلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، القاهرة ١٩١٤

— ١٩٢٨ ، ج ١١ ، ص ١٧٣ .

Peliak; Feudalism in Egypt, Syria, Palestine and the (٦٨)
Lebanon, London 1939, p. 3, note (1).

(٦٩) عبر المقرئى تعبيراً صريحاً عن انتشار هذا الداء بين المماليك بمصر فقال بأنه :
« فشئى فى أهل الدولة عجة الذكران » حتى عمدت النساء الى التشبه بالذكور فى ملابسهم
ليستملن قلوب الرجال ، انظر الخطوط ، ج ٢ ، ص ١٠٤ ، أحمد عبد الرازق ، المرأة فى مصر
الملوكية ، ص ١٠٢ .

(٧٠) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٥٦٩ ، حوادث
الدهور ، ص ٣٥٠ ، المنهل الصافى ، ج ١ ، ورقة ١٩٤ ب ، ١٩٥ أ ، ج ٢ ، ورقة ١٩١ أ ،
السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٧١ ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج ٢ ،
ص ١٦ .

(٧١) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٣ ، ص ٢٦ .

(٧٢) ابن لياس ، بدائع الزهور ، طبعة كالة ومحمد مصطفى ، ج ٣ ، ص ٣٠١ ،
ج ٤ ، ص ٩٨ .

(٧٣) عن الطواغية : انظر :

Ayalon, Studies on the structure of the mamlûk army,
BSOAS, XV/3 (1953), pp. 467 — 467; Salâh El-behiry ,
Les Institutions de l'Egypte au temps des Ayyûbides, Lille
1972, pp 46—66.

(٧٤) ابن لياس ، بدائع الزهور ، طبعة كالة ومحمد مصطفى ، ج ٥ ، ص ٦ ،

Ayalon, L'Esclavage, p. 34; Ahmpd Abd ar-Raziq, La Femme,
p, 172.

(٧٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ١٣ ، ص ٣٤٨ ، ابن حجر ، الدرر الكامنة ،
ج ٣ ، ص ٢٦٣ .

(٧٦) ابن حجر ، الدرر الكامنة ، ج ٣ ، ص ٣٦٣ .

(٧٧) مفضل بن أبى الفضائل ، كتاب النهج السديد والدر الفريد فى مسد تاريخ
ابن العميد بارس ١٩١١ ، ج ١٤ ، ص ٥٩٧ .

(٧٨) ابن تفرى بردى ، المنهل الصافى ، ج ٤ ، ورقة ٣ أ .

(٧٩) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٥ ، ص ٤١٦ ، تاريخ
ابن الفرات ج ٩ ، ص ٥٢ .

(٨٠) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٣ ، ص ١٣ .

(٨١) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٨٨ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة
القاهرة ، ج ٧ ، ص ١٢ .

- (٨٢) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٣٩٣ .
- (٨٣) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧٤ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٣ ، ٢٨٦ .
- (٨٤) ابن تفرى بردى ، المنهل الصافي ج ١ ، ورقة ٣٤٦ أ .
- (٨٥) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٧ ، ص ١٠٣ .
- (٨٦) تاريخ ابن الفرات ، ج ٨ ، ص ٧٤ ، ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٨٦ .
- (٨٧) لاسم لوظيفة يتألف من ثلاث كلمات : أمير العربية ، وجان الفارسية والتركية ومعناها الروح ، ودار الفارسية ومعناها ممسك ، والمعنى السكاى الأمير الممسك للروح ، انظر : القلقشندي ، صبح الأعشى ، ج ٤ ، ص ٢٠ ، ٥٩ ، ج ٥ ، ص ٤٦١ ، المقرئى ، الحطاط ، ج ٢ ، ص ٢٢٢ ، حسن الباشا ، الفنون والوظائف على الآثار العربية ، ج ١ ، ص ١٩٥ — ١٩٨ .
- (٨٨) المقرئى ، السلوك ، ج ٢ ، ص ٧٦ .
- (٨٩) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٨ ، ص ٣٧ .
- (٩٠) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٨ ، ص ٦٧ .
- (٩١) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٧ ، ص ٦٣٦ .
- (٩٢) ابن تفرى بردى ، المنهل الصافي ، ج ٢ ، ورقة ٥٧ أ .
- (٩٣) ابن تفرى بردى ، المنهل الصافي ، ج ٣ ، ورقة ٧٤ أ .
- (٩٤) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٦ ، ص ٢٠١ .
- (٩٥) السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ١٠ ، ص ١٦٤ .
- (٩٦) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٧ ، ص ٢٩٠ .
- (٩٧) المقرئى ، السلوك ، ج ١ ، ص ٥١٢ .
- (٩٨) ابن لباس ، بدائع الزهور ، طبعة بولاق ، ج ٢ ، ص ٢٧٧ .
- (٩٩) ابن تفرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ١٧٠ ، وانظر أيضاً الحواشى التالية .
- (١٠٠) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٩ ، ص ٣٠٠ ، المنهل الصافي ، ج ٢ ، ورقة ٨٥ ب .
- (١٠١) ابن تفرى بردى ، المنهل الصافي ، ج ٣ ، ورقة ١٩١ ب .
- (١٠٢) ابن تفرى بردى ، النجوم ، طبعة كاليفورنيا ، ج ٦ ، ص ٥٢٦ .
- (١٠٣) العيني ، عقد الجمان ، ج ٢٧ ، ورقة ٣٨٩ ، ابن خلدون ، العبر ، ج ٥ ، ص ٣٧٧ ، ابن شاكر ، عيون التواريخ ، مخطوط بدار السكتب ، تحت رقم ١٣٧٦ تاريخ ،

٢٠٠ ، ورقة ٨١ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ١٩٠٠ ،
ص ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

(١٠٤) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٨ ، ص ١٠٠ ، المنهل الصافي ،
ورقة ٥٥ ب .

(١٠٥) ابن تغرى بردى ، النجوم ، طبعة القاهرة ، ج ٧ ، ١٢ ، ١٣ ، ٨ ،
ص ٦٨ ، المنهل الصافي ، ج ١ ، ورقة ٣٣٦ أ .

(٢٠٦) انظر ما جاء بصدد هذه الفئة من الممالك في :

Ayalon, The Mamluk army , BSOAS, XV/2 (1953)
pp. 220-222.

(١٠٧) ابن تغرى بردى ، حوادث الدهور ، ص ٤٤٣ .

